كلّ فحص يخشى أن يزرقه المضمّد بإبرة، ووجهه ينبئ عن عدم اطمئنان طفوليّ، لكلّ حركة يؤدّيها الرّجل. وحين أكمل المضمّد كلّ الفحوص، سأله الزّوج وهو ينظر صوب وعاء الضّغط الموصد:

ـ «أتستمرّ التّجربة على زوجتي طويلاً؟».

كتب الرجل شيئاً على ورقة أمامه بلامبالاة:

ـ «بعد قليل سيضاء المصباح المعلّق عند البوّابة الرّئيسيّة وسأفتح الباب لتخرج زوجتك..».

صمت الزّوج لحظات، استطاع الصّغير خلالها التملُّص من يد أبيه وأخذ يركض في الحديقة ويقطع الزّهور الصّغيرة المتفتّحة، القريبة من متناول يده. سأل الزّوج من جديد:

ـ «ما النّفع من إجراء كلّ هذه التّجارب وصرف هذه المبالغ الضّخمة؟». ضحك المضمّد وقال ساخراً:

ـ «إنّنا نجرّب إمكانيّة عيش الإنسان في أمكنة ضيّقة، في وعاء للضّغط، أليس هذا سبباً كافياً؟».

اعتقد الزّوج أنّ الرّجل لا يحتمل النّقاش الجدّيّ، فأخذ يتابع بعينيه المصباح. وحين أضاء بعد دقائق شعر بفرح طاغ يتملّكه، وأشار للمضمّد أنّ المصباح قد أضاء، فقام الرّجل ضجراً وفتح الباب. فخرجت الزّوجة مذعورة وهي تحاول اعتياد الرّؤية في ضوء الشّمس، وأخذت تنظم شعرها وتعيد طرف قميصها الخارج من التّنورة، وهي تشعر أنّها مبلّلة، مثل ثمرة بطّيخ مفلوقة إلى نصفين. ركض الصّغير صوبها واستقبلها الزّوج ورأى على وجهها ورقبتها قطرات عرق، قال لها:

ـ «أرجو أن تكوني بخير».

هزّت رأسها إيجاباً. كانت يدها تقبض على أوراق نقديّة. قال المضمّد:

ـ «اكتملت الاختبارات اليوم. ستحضران حالما نهاتفكم، وربّما نطلب حضور الزّوجة وحدها أو الرّجل وحده. إنّ ذلك يتوقّف على نوعية الاختبار».

قال الرّجل هامساً لزوجته:

«أقبضتِ؟!».

فتحت كفّها فبانت الأوراق النّقدية المدعوكة مبلّلة بعرق كفّها، ولم تقل شيئاً. خرجا من البناية وأخذا يسيران في الشوارع المزدحمة بالنّاس، وبعد ذلك قطعا شارعاً عريضاً صوب الحديقة التي مرّوا بها قبل ساعتين. قال الزّوج:

ـ «أكان أحد غيرك داخل وعاء الضّغط؟».

هزّت المرأة رأسها إيجاباً ولمعة غريبة بَرَقَتْ في عينيها:

«هو الّذي أعطاك مكافأة التّجربة؟».

هزّت رأسها من جديد إيجاباً. قال الزّوج مخففاً:

ـ «إنّها اختبارات بسيطة! إنّهم يرمون أموالهم في الطّريق! سنكسب مالاً كثيراً في الأيام القادمة».

أخذت المرأة تنظر واجمة صوب أطفال الحديقة بملابسهم الملوّنة، وثمّة فتيات يلعبن بكرة مطّاط حمراء، وشمس هائلة الحجم مهشّمة تستحمّ في ماء النّهر القريب وتخرج أجزاؤها لاهثة، لتلقي بنفسها على أوراق الشّجر القريبة وتثقبها وتتقلّب باسترخاء بين أوراق العشب ثمّ تنساب بملل بين أقدام الأطفال اللاّعبين هنا وهناك..

العراق

الحياة

على حافة الدّنيا

رشيدة الشارني

أخرجنا الأغنام من الزّريبة وقُدناها باتّجاه المراعي القريبة من حقلنا يشيّعنا صوت أمّي منبّهاً:

ـ لا تبتعدوا كثيراً، النّوّة قادمة.

سار القطيع بخطى حثيثة، وكانت الخرفان تتدافعُ برفق وقد بدت منتعشة بدفء الشّمس الّتي غاب نورها أيّاماً طويلة. توزّعت في المرعى تحرسها كلابنا الشّرسة، وأخذ أخواي عمّار والأمين يتقاذفان كرة مصنوعة من جوارب قديمة، بينما استلقيتُ أنا على العشب الطريّ أتنفّس عطر الرّبيع وأهيم ببصري في بهائه.

كان يحدّ الرّبى المحيطة بنا جبال عالية، كنّا نقول عنها دائماً ونحن نتطلّع نحوها إنّها حافة الدّنيا ونتصوّر أنّ وراءها بالضّبط يقع العالم الآخر حيث يحاسب الله الأموات من عباده محفوفاً بملائكته، وحيث الجنّة والنّار. وكنّا نرى في أوامر والدينا بعدم الابتعاد كثيراً تأكيداً لذلك.

خطر ببالي أمر وأنا أطالعها وأتفحّص ارتفاعها: لماذا لا نذهب إلى حافة الدّنيا ونتجسّس على سكّان العالم الآخر؟

أحسست أنّني صرت قادرة بسنواتي الّتي فاقت العشر على تجاوز الخوف الطفوليّ المزروع في أعماقي أكثر من أيّ وقت مضى. ناديت أخويّ وعرضتُ عليهما الفكرة فأظهرا خوفاً كبيراً في البداية ثمّ وافق الأمين وهو أكبرنا سنّاً على مشاركتي المغامرة. تركنا عمّاراً يحرس القطيع ومشينا باتّجاه أقرب نقطة من الجبال بدت لنا.

قطعنا مسافةً طويلة وفي كلّ لحظة تزداد الجبال أمام عيوننا ارتفاعاً وندرك مدى بُعْد العالم الآخر عنّا.

بدأتْ سحبٌ داكنة تزحف من وراء الجبال. تسرَّب الخوف إليَّ وأنا أتخيَّلها على شكل كائنات غريبة تحمل علامات القسوة والغضب. اعتقدتُ أنّها رسالة إنذار من سكّان العالم الآخر فاهتزَّ قلبي رعباً.

اقترحتُ على أخي العودة فوافق على الفور، وقد ارتحتُ لفتور حماسه الّذي كان هو أيضاً يحاول إخفاءه.

كان هجوم السّحب سريعاً. تجاوزَنا برذاذه ثمّ تحوّل في وقت قصير إلى سيول جارفة.

عدَوْنا بأقصى سرعة ونحن نفكّر بالقطيع. وعندما أدركناه لمحنا عمّاراً يحاول بعصاه الصّغيرة لمّ شتات الشّياه.

حاصرنا القطيع وجعلنا نحثّه على السّير بأقوى سرعة خوفاً من أن يفاجئنا فيضان وادي مجردة القريب منّا. لكنّ خطوات النّعاج والحملان تعثّرت بسبب الأوحال الّتي صرنا نتخبَّط فيها جميعاً.

قبل مسافة قصيرة من البيت طالعنا وجه أمّي المتوتّر. كانت تلبس حذاءً طويلاً وتضع على رأسها غطاءً من الصّوف حاولت به إخفاء بطنها الممتدّ أمامها. كانت قلقة علينا إلى حدّ الغضب وكنّا نعرف أنّها تنفعل كثيراً من أخطائنا بسبب الخوف من قسوة أبي، خاصّة إذا تعلّق الأمر بأغنامه. فهو مهووس بها إلى حدٍّ غريب ويحزنه مرض نعجة أكثر من موت قريب له.

***

لم نكد نُدخل القطيع إلى الزريبة حتّى قدم أبي عائداً لتوّه من القرية. انهال علينا شتماً بمجرَّد اكتشاف تبلّل الشّياه، ولست أدري كيف تفطّن بنظرة واحدة من عينيه إلى نقص في عددها.

كنّا نرتجف خوفاً ونحن نلاحظ تجهّم قسماته وزحف الغضب عليها وهو يعدّها ليتأكّد من ذلك. ثمّ انفجر صوته مجلجلاً: «يا أولاد الكلب، سأقتلكم اللّيلة جميعاً. نعجتان وثلاثة خرفان ناقصة! أين هي؟ أين ضاعت؟ كيف غفلتم عنها؟ يا خلاء بيتي.. رأسي تعرّى... هيّا اخرجوا وابحثوا عنها ولا تعودوا إلاّ بها..».

كان الخوف قد سمّرنا في أماكننا وسلب منّا القدرة على الكلام أو حتّى رفع عيوننا المنكسرة فيه.

عندما أدرك جمودنا أمسك بعصا طويلة وخطا نحونا يتهدّدنا بالقتل. لكنّنا تناثرنا من حوله واندفعنا نحو الخارج تاركين أمّنا تتوسّل إليه بصوتها المرتعش:

ـ اللّيل هبط... والدّنيا مطر.. سيبحثون عنها في الصّباح.

ـ اسكتي أنتِ وإلاّ أخرجتك معهم. أنتِ الّتي سمحت لهم بالخروج. كلّ هذا منك يا وجه النّحس.

***

خرجنا شاردين باتّجاه المرعى الّذي كنّا فيه. كانت خطواتنا الصّغيرة تزداد تعثّراً وهي تتحسّس طريقها في أرض كستها المياه وتحوّلت إلى غدران بلون التراب.

بحثنا عن الأغنام الضّائعة خلف التّلال وبين الأشجار، ولكنْ لم نعثر لها على أثر.

مع حلول الظّلام بدأ الخوف يداهمنا، وقد زاده شدّةً تهاطلُ الأمطار بإصرار غريب وصعوبةُ الرّؤية والتّعب.

سلكنا طريق العودة ونحن نهيّئ أنفسنا للمواجهة القاسية. كانت أحشاؤنا تتفتّت خوفاً ونحن نتقدَّم بحذر نحو الدّار. على مسافة غير قصيرة لمحنا أمّي تحمل بيدها فانوساً وتنادي علينا حتّى نعود.

كنّا نقطر ماءً ونرتعد خوفاً وبرداً ونحن ندخل الدّار منكّسي الرّؤوس..

عندما رآنا أبي نعود من غير الأغنام خطا نحونا متأبّطاً شرّه. نزع حزامه الجلديّ وانهال علينا ضرباً. حاولنا أن نهرب من قبضته لكنّه لاحقنا وأوجعنا بسياطٍ مسمومة طالت حتّى والدتي الحامل الّتي كانت عبثاً تحاول حمايتنا...

في تلك اللّيلة نمنا على بكائنا المختلط بنشيجها.

لا أدري كم مضى من الوقت عندما أفقت مذعورة وقد تحوَّل النّشيج إلى أنين خافت.

سألت أمّي بلهفة:

ـ أمّي.. ما بك؟

ـ يبدو أنّني سألد قريباً... ولكن لا تخافي يا ابنتي، سأصبر حتّى الصّباح.

لم يعاودني النّوم. ظلَّ القلق يأكلني وأنا أستمع إلى أنينها الّذي تحوّل شيئاً فشيئاً إلى صراخ متقطّع.

طلبَتْ منّي أن أخبر أبي بالأمر حتّى يخرج للبحث عن قابلة أو يستدعي أهلها.

كان والدي قد تعوَّد على الاعتكاف في الزّريبة كلّما غضب... يهجرنا لأيّام طويلة ينام فيها بالقرب من حيواناته الّتي غالباً ما يعدّها قائلاً إنّها أوفى وأحسن من البشر.

تحسَّست في الظّلام المكان الّذي ينام فيه. لمسته من قدمه قائلة: «أبي... أفق... إنّ أمّي تتوجَّع... يبدو أنّها ستلد قريباً».

أجاب ببرود مقيت:

ـ ألم تجد غير هذه اللّيلة السّوداء تضع فيها؟

ـ أرجوك يا أبي، اذهبْ إلى أهلها وأخبرهم بحالها.

ـ لن أخرج الآن. المطر مازال يهطل، فلتصبر حتّى الصّباح.

عدت إلى حيث أمّي. كان عمّار والأمين قد أفاقا من النّوم وظلاّ يحملقان فيها بعيون حائرة.

خجلتُ من موقف أبي وأنا أخبر أمّي به. كتمتْ قهرها واستدارت نحو المنسج تمسك به بشدّة وهي تحاول ألاّ يتصاعد صراخها حتّى لا تزعجنا.

ظللتُ أستقرئ وجهها المعذَّب. بدأت نوبات صراخها تصدع سمعي. أدركت أنّها لامحالة ستلد قبل الصّباح.

رجعتُ إلى أبي أتوسّل إليه أن يأتي ليراها ولكنّه رفض بشدّة معلّقاً: «إنّه

دلال نساء».

قلت له:

ـ إنّها في خطر وقد تموت.

أجاب بقسوة العدوّ:

ـ لتمت. إنّ حياتها أرخص بكثير من الشّياه الّتي تسبّبت في ضياعها.

صدمتني شماتته. خرجت أجرّ خطواتي المخذولة وأنا أتساءل بدهشة المفجوع: هل هذا الرّجل هو حقّاً أبي؟ هل يمكن أن أُولد من صلب إنسان مات ضميره؟ أيّ أعذار يمكن أن أُسعفه بها وأُنقذ أُبوّته من الموت؟ لا حاجة بي إليه بعد الآن. لا حاجة بي إلى أُبوّة قاسية.

أحسستُ وأنا غارقة في كآبتي بوجوده يموت فيّ. لقد أتى غضبُه على كلّ شيء وقتل عاطفتي نحوه بالضّربة القاضية. شعرتُ وأنا أمسح دمعي بالخزي من كوني ابنته...

عند الباب التقيت بالأمين، كان هو أيضاً آتياً لإقناعه بضرورة المساعدة. قلت له: «لا فائدة».

استغرب الأمر وأصرّ على التحدُّث إليه، ولكنّه عاد بعد قليل مقهور الملامح يبحث عن معطفه ويعلن بعصبيّة طفل عن عزمه على الخروج إلى بيت جدّي. حاولت أمّي بصوتها الضّعيف أن تمنعه ولكنّه أصرّ على موقفه وانطلق خارجاً محاولاً أن يتحسَّس طريقه في الظلام والأنواء.

* * *

صار صراخ أمّي يمزّق سكون اللّيل ويكتم أنفاسي. بدأ شحوبها يخيفني. افترست الحيرة هدوئي وأنا أفكّر في شيء أفعله من أجلها.

نبشتُ في فكري عن أسرار الولادة والحياة، فلم يسعف ذاكرتي سوى ذلك الماء السّاخن الّذي كانت القابلة تدخل به إلى غرفة أمّي عندما ولدت عمّاراً.

وضعتُ الماء على النّار، ولم أكد أفعل ذلك حتّى سمعت صوتها الّذي صار يشبه الأنين يناديني:

ـ أحضري مقصّاً وعقّميه بالكحول.

قمت بتعقيم المقصّ ثمّ لففته في منديل نظيف وجعلته قريباً منها. أخبرتها بأنّي وضعت الماء فوق النّار فاستحسنت العمل.

بقيتُ أرقب عذابها بقلق العاجزين. أخذتْ تتحرّك في الغرفة جيئة وذهاباً... بعد فترة قصيرة استلقت على الفراش. ساعدتها في وضع الغطاء فوقها. رفعتْ يديها إلى فوق وأمسكت بعموديه المنتصبين خلف رأسها وفرجت ساقيها ثمّ طلبت منّي أن أضغط برفق على أجزاء معيّنة من بطنها.

أخذتْ بيديّ الصّغيرتين لتدلّني على مواقع الضّغط. تحسَّستُ حركة مسعورة داخلها. تخيّلت شدّة الألم الّذي تتحمّله بسبب ذلك.

كان وجهها الجميل قد صار بلون السّماء الدّاكنة وهي تحاول أن تكتم صراخها الضّائع وتحوّله إلى أنفاس عميقة تدفع بها الطفل إلى الدّنيا.

أمرتني بعد وقت قليل أن أخرج لإحضار الماء السّاخن وتهيئة ثياب الطّفل.

لم أكد أنزل الماء من فوق النّار حتّى تناهى إلى سمعي صراخٌ ملائكيّ. حملتُ الماء مسرعة إليها. وعندما دخلتُ فوجئت بالطفل إلى جانبها. كانت قد استطاعتْ خلال دقائق قليلة أن تقصّ الحبل السّرّيّ وتربطَ سرّة المولود وتضمّه إليها تحت الغطاء، مانحةً إيّاه زاداً لا ينضب من دفئها الأموميّ المقدّس.

(تونس)

دوائر رؤية

عبد السلام الشرقاوي

.. لم يكن في نيّتي أن أتوجّه إلى محطة الرّباط ـ المدينة، لكنّ تعبي المزمن جعلني أغيّر رأيي آخر دقيقة وأعزف عن فكرة ركوب التّاكسي المتوجّه نحو القنيطرة. خطوات، ثم وجدت نفسي في المحطّة وبالضّبط في قاعة المسافرين. اقتعدت كرسيّاً بلاستيكيّاً (الكرسي لم يكن مريحاً بالقدر الكافي، لكنّه.. على نحو ما.. يساعدني في العثور على شيء من الراحة). فكّرت في شراء الجريدة لأطّلع على الجديد اليوم.. لكنّ التّعب نفسه منعني.. فاشتغالي، منذ سنوات، مدرّساً ابتدائيّاً ولّد لديّ تعباً غدا يلازمني. مددت رجلي وسرحت من المكان ـ الفُنْتِ الذي يوجد به الكرسي، سرحت بعيني (داخل قاعة الانتظار) وحدّثت نفسي كصديق ودود، وقلت: «لأمارس هوايتي المفضّلة..». الجو في القاعة كان مناسباً لممارسة نوع من الحساب الذهني. وببلادة انطلقت عمليّة العدّ: «٢٥ مسافراً.. ٧ نساء.. الباقي رجال.. ٣ نساء فوق الثّلاثين.. ٤ نساء بجلابيّات.. ٥ كرفاتات.. ٣ جاكيتات جلد.. ١١ شارباً.. لحيتان.. رأس واحد غرب عنه الشّعر إلى الأبد..».

راقبت، بعض الوقت، فتيات ثلاثاً بعمر الزّهور.. إحداهن موازية لمقعدي.. راقبتها لأمرٍ بسيط هو أنّ لباسها يقول لي على نحو ما (وللآخرين ربّما!): «انظروا إليّ!». وإذْ كنت أفاضل بين ما تلبسه وكيف تلبس لم أجد غير عبارة لا أدري أين سمعتها أو قرأتها:

«Les filles d'aujourd'hui.. beaucoup de boutons et moins de finesse..».

لكني، لم أستسلم لمضمون هذه العبارة إلاّ بعض الوقت.. ذلك